الدكتور سيهولي: ربما كانت «مي الزوهرة» هي أول من اخترعت أحد الأنظمة وأبي هاجر إلى ألمانيا عن طريق الصدفة

حكاية مغربي يشرف على مستشفى برلين للتوليد وأمراض النساء

الدكتور سيهولي إلى جانب أفراد من عائلته

«طلبنا يدا عاملة، فجاءنا بشر»، ربما تنطبق هذه الحكمة البليغة للأديب الألماني الكبير، ماكس فريش، بشكل كبير على البروفيسور الدكتور خالد سيهولي وأسرته. لا يمكن الحديث عن، خالد، دون الحديث عن «امي الزوهرة» رحمة الله عليها، وقد شاءت الأقدار أن أجالسها وقد اشتد عليها المرض، شهرا قبل أن تودع برلين إلي جوار ربها. حكاية خالد وأمه وأسرته، هي حكاية تاريخ الهجرة المغربية في ألمانيا . هذه الهجرة التي تستعد هذه السنة وتحديدا في الرابع والعشرين من شهر ماي، للاحتفال بمرور نصف قرن عليها في ألمانيا. حكاية هجرة أريد لها أن تكون مؤقتة تلبية لحاجيات ألمانيا من أجل إعادة إعمارها بعد دمار الحرب الكونية الثانية، فأصبحت جزءا من ألمانيا بحقوقها وواجباتها.

«الأخبار» تغوص في حياة، خالد سيهولي، وترسم لقرائها بورتريه عن الهجرة المغربية في ألمانيا، وعن حكاية هذا الشاب المغربي الذي يشرف اليوم على إدارة مستشفى «الشاريتيه» لأمراض النساء والتوليد في برلين، وهو المستشفى الذي شهد مسقط رأسه كأول مغربي يولد في برلين. وكان ذلك في العام 1968

برلين: محمد مسعاد

يتذكر خالد قائلا:«في سن السابعة من عمري تعرضت لحادثة سير، ألزمتني الفراش لمدة طويلة. ولكن لأن «امي الزوهرة» التي لم تكن تتساهل في أمور المدرسة، بدأت تحملني على ظهرها والجبص يغطي رجلي، تحملني يوميا إلى المدرسة». حادثة قد تبدو عادية في نظر البعض، غير أنها تركت أثرا عميقا في نفس ضيفنا. حكاية جعلته يطرح السؤال، لماذا تصر أمي على حملي إلى المدرسة، حتى لا أضيع السنة الدراسية؟ «امي الزوهرة» امرأة لم يسبق لها أن زارت المدرسة في حياتها، عرفت أن التعليم مهم في حياة الإنسان. حكاية بسيطة في حياة أسرة مهاجرة تتكون من الزوهرة الأم، وعبد الله الأب، وعبد الحميد الأخ الأكبر، وأخت اسمها لطيفة، ويأتي خالد ثالثا، وبعده مراد.

يروي خالد قصة هجرة أبيه عبد الله إلى ألمانيا، أنها جاءت عن طريق الصدفة. إذ في العام 1953 قرر رفقة أخيه الهرب من المغرب لأسباب سياسية، فتوقف بهما المصير في بروكسيل. ففي الوقت الذي استقر رأي الأخ على البقاء في عاصمة بلجيكا، قرر عبد الله مواصلة الرحلة إلى أن وصل إلى برلين التي كانت وقتها منهكة عمرانيا واقتصاديا، جراء تداعيات الحرب العالمية الثانية. وصل عبد الله إلى برلين واشتغل عاملا في شركة، تاركا وراءه زوجته الزوهرة وولديهما عبد الحميد ولطيفة.

«امي الزوهرة» المخترعة

ليست قصة عبد الله وأخيه غريبة عن عدد من قصص الهجرة المغربية، لقد كانت ألمانيا وجهة أيضا لعدد من الفارين من سوء الفهم السياسي المغربي. وكما وجد عبد الله مأواه في ألمانيا، وجد آخرون أيضا مأواهم، سواء الذين هاجروا قبل 1963 أو بعد توقيع المغرب وألمانيا اتفاقية جلب اليد العاملة. جاء عدد من المغاربة، خاصة من شمال وشرق البلاد إلى ولايتي هيسن وشمال الراين فيستفاليا، ليعملوا في المناجم في ظروف قاهرة. وجاء الدور على النساء اللواتي جئن هن الأخريات في إطار هذه الاتفاقية. وكانت أول دفعة نسائية تتكون من خمسين امرأة التحقن للعمل بشركة «ليندنر» للشكولاتة في آخن، وذلك في بداية السبعينيات.

نعود إلى «امي الزوهرة» التي تتذكر رحلتها من طنجة إلى برلين، «آش ماشي نقول ليك أسيدي محمد، هزينا راسنا ولقينا عبد الله تيتسنانا في الخزيرات، ركبنا مع المانغو في المرسيدس وأراك للطريق...». و«المانغو هو «البراكدي» بلغة أهل الشمال، و«الكورتي» بلغة أهل الشاوية. الطريق من جنوب إسبانيا إلى برلين في بداية الستينيات جزء من الجحيم، بل الجحيم نفسه. أن يقطع المرء إسبانيا طولا عبر الطريق الوطنية، إنه الجهاد الذي لا تغلبه سوى الهجرة نفسها.

ربما كانت «امي الزوهرة» هي أول من اخترع نظام «النافيغاسيون»... شابة لم تتعد عقدها الثاني تجد نفسها وحيدة أمام ثقافة ومجتمع غريبين عنها...«أبيه أوليدي وصلت لبرلين لا حنين لا رحيم غير سيدي ربي. الظروف صعيبة والثلج يضرب للركابي، وامك الزوهرة لا لغة ولا هم يحزنون. منين كنت نخرج لقضاء السخرة كنت نرشم الطريق بالفاخر باش نرجع للدار».

تدريجيا بدأت تتعرف على محيطها، وبدأت لغة الإشارات تؤتي أكلها. إذ عرض عليها أحد الألمان، صاحب مخبزة العمل في «النوار»، أي بدون وثائق، ولبت الطلب مقابل ثلاثة ماركات للساعة الواحدة، مما كان يوفر لها في اليوم الواحد تسعة ماركات مقابل ثلاث ساعات من العمل. وقضت «امي الزوهرة» في هذا العمل سنتين وبضعة أشهر، وبعد حصولها على شهادة الإقامة بألمانيا التحقت بشركة للخياطة، هي التي كانت في درب المصلى تساعد خالتها في أمور الخياطة، وبدأت عملها الجديد مقابل 55 مارك للساعة.

عن طريق مكتب العمل عرض عليها العمل في مستشفى تابع للهلال الأحمر، حسب ما تقول «امي الزوهرة»، وحين يصحح لها صهرها بأن الأمر يتعلق بالصليب الأحمر، لا تبالي بذلك وتصر على تسميته بالهلال الأحمر. خمسة وعشرون سنة قضتها في هذا المستشفى، إلى أن حصلت على التقاعد المبكر نتيجة العجز.

تربية الأولاد أفضل من الحج والجهاد

هذا العجز الجسدي الذي ألزم «امي الزوهرة» البيت وأبعدها عن عالمها الخارجي، لم ينجح في إفشال مهمتها كأم وكمربية. فبعد عبد الحميد ولطيفة أنجبت خالد ومراد. واضطرت إلى تربيتهم جميعا بمفردها، فالأب كان يعمل خارج البيت، ولسبب ما قرر العودة إلى المغرب. وبقيت الأم وحدها وجها لوجه مع أربعة أولاد وثقافة ومجتمع غريبين عنها. تقول «امي الزوهرة» وهي تتحدث عن أبنائها الأربعة: «شوف أسيدي محمد تربية العواول خير من الحج والجهاد». إذ تمكن عبد الحميد من إتمام تأهيل مهني في المجال الصناعي، ولطيفة تفوقت في امتحان التمريض، وتعمل كممرضة، ومراد يمارس المحاماة اليوم في أحد أحياء برلين الراقية، أما خالد الذي ولد في مستشفى برلين كأول مغربي، فأصبح الطبيب المتخصص في أمراض سرطان المبيض، إنه رئيس مستشفى النساء في المركز الاستشفائي «الشاريتي» أحد أشهر مستشفيات ألمانيا، ورئيس المركز الأوربي للأبحاث في سرطان المبيض. وقد نشر مؤخرا أول كتبه تحت عنوان «مراكش»، ويعكف الآن على تأليف كتاب ثان بعنوان «طنجة». لقد كسبت الأم الرهان، وهذا ليس بالأمر الهين في بلد مثل ألمانيا، التي لا تكاد تجد أحدا فيها يصدق هذه الرواية. أم لم تعرف الكتابة أو القراءة، وتمكن أبناؤها من شق مسارهم الدراسي، بل أن يكون لهم شأن رمزي في المجتمع. لقد نجحت «امي الزوهرة» في تربية الأولاد، وكتب لها أيضا أن تزور قبر النبي وتحج مرتين. ويبقى وفاة «امي الزوهرة» الجرح الدائم في حياة خالد. هذه الأم كغيرها من المغاربة الذي يحملون معهم حكاياتهم وحتى وهم يرحلون إلى دار البقاء. وطبعا لم تنج قصة «امي الزوهرة» مع تجربة الهجرة من حكايات طريفة، وترجع بها الذاكرة إلى إحداها التي وجدت فيها نفسها في ضيافة البوليس السري لبرلين الشرقية، ولا ذنب لها في ذلك سوى أنها خرجت تبحث عن البلدية من أجل التأشيرة، عند سماعها أن فيلي برانت وكان وقتها عمدة برلين، أنه يسلم أوراق الإقامة للأجانب . خرجت «امي الزوهرة» وتاهت في ميترو الأنفاق، إلى أن وجدت نفسها في برلين الشرقية وجها لوجه مع شرطتها. وتروي الحاجة الزوهرة هذه الحكاية بابتسامة كبيرة، «واش غانقوليك أسيدي محمد، هذا مكتاب لي ما قاريش، تبعت الناس من ميترو لميترو حتى لقيت راسي ورا الحايط. خداوني البوليس وجابوني لداري، لقيت الداري يبكيو والراجل زعفان عطاني جوج ديال الطروش ودخلت نجري للكوزينة نوجد ليهم الغدا، آش من غدا قول العشا».

التعليم ولا شيء غيره

يعتبر التعليم في ألمانيا نخبويا بامتياز، إن الالتحاق بالثانوي والحصول على الباكالوريا والدراسة في الجامعة، ليس بالأمر الهين في بلاد غوته، وليس الأمر متاحا للجميع، على اعتبار أن التوجيه بعد التعليم الأساسي يكون مهما في اختيار التلميذ لمساره المستقبلي. وغالبا ما أن أبناء الطبقات العاملة لا ينجحون في الوصول إلى الجامعات، لأن تم تغيير مسارهم بناء على مردوديتهم وملاحظات الأساتذة. وطبعا أبناء الأسر المهاجرة يلقون المصير نفسه، لأن مسلك التعليم الثانوي يفرض مثابرة خاصة ومتابعة من طرف الأسرة. وهذا الأمر، أي المتابعة لا تكون متوفرة لدى أرباب الأسر المنحدرين من الطبقات العاملة، أو من أصل أجنبي. ولكن لأن الديمقراطية سلوك يومي ومؤسساتي، هناك دائما فرص لتصحيح المسار، وكان هذا حال الدكتور خالد، الذي استطاع بمثابرة خاصة وعناد أن يغير طريقه ويلج إلى الجامعة ليتخرج منها طبيبا، ويصبح مديرا لمستشفى «الشاريتي» في برلين للتوليد وأمراض النساء. كان التعليم مفتاح النجاح لخالد. وتحس أحيانا أنه اضطر إلى أن يثابر في قراءته حتى يتمكن من القيام بشقاوته «عندما أحصل على نقاط جيدا، يكون بإمكاني القيام بكل شيء. وفي حالة العكس أحرم حتى من لعب كرة القدم التي كنت أجيد لعبها جيدا».

بين برلين والمغرب

حين سألته ما هي برلين بالنسبة لك؟ فجاء جوابه على شكل هذيان:«إنها مركز حياتي، إليها جاء والداي. وبها حققت نجاحي المهني. وفيها تعرفت على زوجتي الرائعة. وببرلين ولد أبنائي الثلاثة. هذه المدينة حظي دون أن أخبئ جذوري المغربية.» وبالمقابل يبقى المغرب قطعة منه كما يقول، «بل إنه شوقه ومكانه الآمن وأرضه التي يحبها ويحياها». خالد سيهولي قنبلة موقوتة تنفجر أمامك في كل حين بالأفكار والحيوية والطيبوبة. حين أراد خالد سيهولي أن يجيب عن سؤال من أنا وما هو المهم في حياتي؟ كتب كتابا يحمل اسم «مراكش». هذه المدينة التي فتحت قلبه وجعلته يفتخر بمغربيته بحسب قوله. غير أنه وجد نفسه مدينا لمدينة أخرى، مدينة والديه، إنها طنجة وهو الاسم الذي أطلقه على كتابه الثاني الذي يزال قيد الكتابة، اعترافا منه بجميل المدينة على والديه.

> برلين هي مركز حياتي إليها جاء والدايا وبها حققت نجاحي المهني وفيها تعرفت على زوجتي الرائعة وفيها ولد أبنائي الثلاثة

> يعتبر التعليم في ألمانيا نخبويا بامتياز فالالتحاق بالثانوي والحصول على الباكالوريا والدراسة في الجامعة ليس بالأمر الهين في بلاد غوته

> قرر رفقة أخيه الهرب من المغرب لأسباب سياسية فتوقف بهما المصير في بروكسيل ففي الوقت الذي استقر رأي الأخ على البقاء في عاصمة بلجيكا قرر عبد الله مواصلة الرحلة إلى أن وصل إلى برلين

خالد سيهولي (يسارا) في أحد اللقاءات

زرع البسمة في قلوب الآخرين

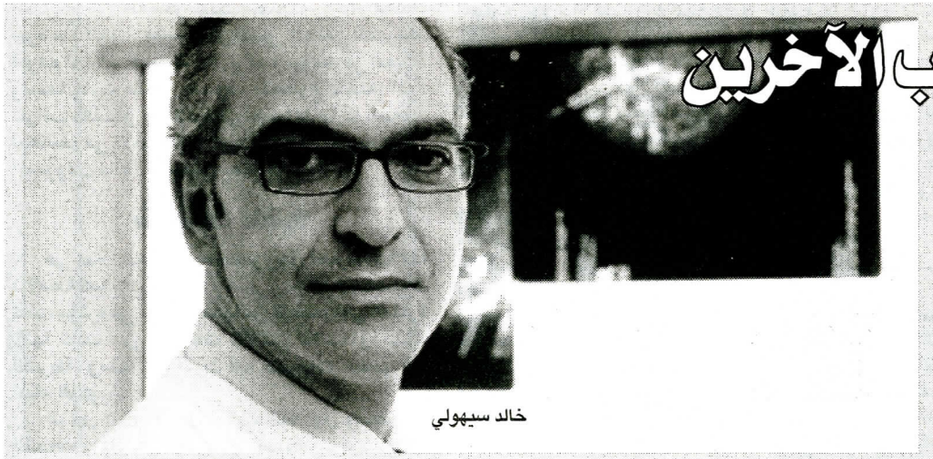

خالد سيهولي

يعتبر البروفيسور خالد سيهولي من المؤسسين للمركز الأوربي للأبحاث في مرض السرطان. وقد ساهم هذا المركز في إدخال الابتسامة على عدد من المصابات بسرطان المبيض من دول مختلفة من العالم. وكانت مغنية الأوبرا، كارولين مازور، واحدة منهن التي تعتبر أن الدكتور سيهولي أنقذها من موت محقق، وهي لا تخفي ذلك بل إنها تقول «لن أتردد في نصح أي سيدة أصيبت بهذا الداء الخبيث بوضع ثقتها في هذا الطبيب البرليني». وتضيف أن سيهولي «ليس مجرد طبيب متمكن من مجال عمله، بل إنه شخص شغوف بالإنسان، وهذه الطاقة من الإحساس هي التي ساعدتني في مواجهة مرضي». إنه رأي مغنية أوبرا فقدت الأمل حين علمت بإصابتها بالمرض الخبيث، غير أن خالد سيهولي أعاد إليها الابتسامة وأرجعها إلى ركح الأوبرا تطلق صيحاتها الأوبرالية عالية في سماء برلين وباقي مدن العالم.